حديث الامبراطورية البريطانية

تقول الأساطير الاغريقية القديمة ان البطل الأثينى ثيسيوس Theseus حين ذهب إلى قصر التيه فى جزيرة كريت متحديا ملكها ، أمسك بيده خيطا دقيقا كان يرخيه كلما تابع المسير ، وبذلك أمن العثار ، فلم تختلط عليه مسالك القصر وعرصاته ، واستطاع فى آخر الامر أن يجد لنفسه من التيه مخرجا . وليست الامبراطورية البريطانية الآن من حيث التعقيد والتنويع وكثرة الشعاب أقل من قصور التيه فى الأساطير القديمة جميعا . فما علينا إذا أردنا البحث فى موضوعها إلا أن نسير فى أحنائها ومعاطفها ويدنا حبل من التاريخ نثبته فى نقط معينة نختارها ، حتى لا نحيد عن محجة الطريق ، ثم نمضى بعد ذلك قدماً فى بحثنا . ولتكن هذه النقط التى نختارها حول تطور حركة الاستقلال فى الاملاك الحرة داخل الامبراطورية البريطانية .

وما دعانى إلى الكتابة فى هذا الموضوع إلا أمران : الأول أن نهرو الزعيم الهندى ونائب رئيس حكومة الهند ، كان قد اقترح على الجمعية التأسيسية التى تضطلع الآن بمهمة وضع الدستور أن تعلن حكومة الجمهورية فى الهند . وقد أرجأت الجمعية بحث الموضوع مؤقتاً وإقرار هذا الاقتراح يقتضى حتما أن ينزل ملك انجلترا عن لقب « إمبراطور » ؛ فيفقد التاج البريطانى بذلك ألمع جوهرة تزينه . ذلك لأن الملك ليس له أن يتسم بلقب الامبراطور إلا بالاضافة إلى الهند ، أما فى خارج الهند وفى انجلترا نفسها فهو الملك لا غير فهل مقدر يا ترى أن تصبح الامبراطورية البريطانية اسما على غير مسمى ؟

أما الأمر الثانى فهو ما نلمسه الآن من تعنت الحكومة الانجليزية بشأن الجلاء عن مصر ووحدة وادى النيل . ولو تقصينا تاريخ الانجليز مع أبناء جلدتهم المنتشرين فى أنحاء العالم ، ووقفنا على الجهود التى بذلها هؤلاء فى المستعمرات التى اتخذوها وطنا ، والوسائل التى تذرعوا بها للخلاص من سلطان

البرلمان الانجليزى ونير الحكومة الانجليزية، لأدركنا أنه ليس أوقع فى نظر الانجليز من قوة الأمر الواقع، وأن الحقوق المهضومة لا يكسبها أصحابها برخصة أوسند من الخارج، بل يستخلصونها بأيديهم ويستمدونها من ذات أنفسهم أولا؛ وحينئذ لا يلبث الناس جميعا أن يعترفوا لهم باستحقاقهم لما أحرزوه. وقد سلخ الانجليز قرابة ثلاثة قرون ونصف قرن يزاولون الاستعمار فى قارات العالم القديم والجديد، وقد صادفهم فى أثناء اضطلاعهم بهذه الشؤون ظروف مواتية وثروات طائلة، إلى جانب محن وأحداث وحروب وثورات ودروس وتقلبات كان من شأنها أن تكسب الحكومة الانجليزية خبرة ومرانة فى تكييف مسائل الشعوب الصغيرة والضعيفة التى تعرض لها. ولكننا مع الأسف نراها كملوك البوربون فى فرنسا فى القرن الماضى لم ينسوا شيئا ولم يتعلموا شيئا كثيراً؛ فهى إذا تعلمت كيف تعامل أبناءها وبناتها متى شبوا عن الطوق، نراها مع غير هؤلاء تعيد كتابة اللوح القديم من ألفه إلى يائه، وتقف أمامهم ملوِّحة بعصاها فى انتظار الناقوس الذى سيدق حتما مؤذنا بانتهاء حصة المدرس وانصراف التلاميذ إلى بيوتهم حيث آباؤهم وأمهاتهم وبنو عشيرتهم يلقنونهم دروس الحياة فى الحرية وحب الوطن.

وقد كابدت انجلترا أول دروسها فى أمريكا، وكان تلاميذها من صفوة أبناء الطبقة المتوسطة أولئك الذين جاهدوا بأموالهم وأرزاقهم وعزائمهم فى سبيل مبادئهم وضمائرهم، واشتروا الحرية فى العالم الجديد بكل ما كان عزيزاً عليهم فى العالم القديم.

فهل نعموا حقا بالحرية التى تعشقوها، ورصيت لهم انجلترا فى مقامهم الجديد بحق الاستقلال الذاتى يباشرونه بحراسة الحكومة الانجليزية وتحت إشرافها؟ لم يحدث شىء من ذلك، بل ظلت الحكومة الانجليزية تتدخل فى شؤونهم، فتفرض عليهم القوانين التى يسنها البرلمان فى إنجلترا، وتطلب أن يعرض عليها ما تقرره مجالس المستعمرات للموافقة عليه أو رفضه، وتتدخل الكنيسة الانجليزية فى شؤون المستعمرات الدينية، على حين أن الرواد الأوائل من هؤلاء المستعمرين لم يهاجروا من بلادهم إلا فراراً من التحكم فى ضمائر الناس ومعتقداتهم. وأخيراً أصرّ البرلمان الانجليزى ومعه الحكومة على تقرير رسوم وضرائب جديدة على أهل المستعمرات لتسديد بعض الديون التى

كابدتها إنجلترا فى حروبها ضد فرنسا . فاعترض أهل المستعمرات وقالوا إنهم غير ممثلين فى البرلمان الانجليزى ، ولا يستجيبون فى دفع الضرائب إلا للقوانين التى تصدرها جمعياتهم التى يمثلون فيها . وقد بعثوا بموقفهم هذا النظرية القانونية المشهورة التى تقول : « إنه لا ضريبة من غير تمثيل » . ومع أن الحكومة الانجليزية قد اضطرت إلى سحب بعض هذه الضرائب التى كانت قد فرضتها فان البرلمان قد أصرّ على حقه فى التشريع لجميع أجزاء الامبراطورية البريطانية . وكانت نتيجة هذا التعنت من جانب الحكومة الانجليزية أن نشبت حرب الاستقلال الأمريكى فى سنة ١٧٧٥ . وقد لاقى أهل المستعمرات فى أول الأمر محناً وشدائد عدة ؛ فقد كان يعوزهم المال والرجال ، وينقصهم حسن القيادة وهم يحاربون أقوى دول الأرض بحراً وأكثرها مالا وجاهاً . ولكنهم سرعان ما حزموا أمرهم وجمعوا كلمتهم ، فاختاروا لقيادتهم بطلهم جورج واشنجتون ، فجعل يدرب الجيوش ويرسم الخطط ويتفق عليها مع أصدقاء أمريكا من قواد فرنسا وأسبانيا اللتين اغتنمتا الفرصة وأعلنتا الحرب على إنجلترا . وكان مندوبو المستعمرات الأمريكية قد اجتمعوا فى مدينة فيلادلفيا فى مايو سنة ١٧٧٦ وأعلنوا استقلالهم فى الوثيقة التاريخية التى قالوا فيها تأييداً للآراء الديمقراطية التى تقوم عليها حكومة الولايات المتحدة : « إن الحكومات تستمد قوتها من إرادة المحكومين ورضائهم . فاذا أخلت حكومة بذلك الأساس صار من حق الشعب أن يقوض هذه الحكومة ويقيم بدلا منها غيرها على أسس ومبادىء خليقة بأن تحقق للناس أمنهم وسعادتهم . » وكان لاعتراف فرنسا وأسبانيا وغيرهما من دول أوربا التى كانت تنقم على إنجلترا حق سيادتها على البحار أثر ظاهر فى تقوية الروح المعنوية لدى الأمريكيين ، وتحوّل الحرب من البر إلى البحر بوقوف الدولتين الاستعماريتين المتنافستين إنجلترا وفرنسا وجهاً لوجه . واستمرت الحرب سجالاً بين الجانبين إلى سنة ١٧٨١ حين انتصر واشنجتون وحلفاؤه الفرنسيون ، واضطر الانجليز إلى التسليم أمام يوركتون ، وعقدت معاهدة الصلح فى سنة ١٧٨٣ ، وبها أقرت إنجلترا استقلال الولايات المتحدة ؛ وبذلك انطوت الصفحة الأولى من سجل الاستعمار الانجليزى . ولو أن إنجلترا كانت قد سارعت إلى إجابة أبناء مستعمراتها إلى ملتمسهم برفع الضرائب والرسوم المفروضة عليهم كرهاً

والنزول عن حق التشريع لجماعات تفصلهم عنها آلاف من الأميال يقتضى طيها فى تلك الأيام ذهاباً وإياباً ثلاثة أشهر على الأقل — لبقيت أمريكا إلى اليوم إحدى مجموعة الأمم الحرة داخل نطاق الامبراطورية البريطانية .

ولكن خيبة الأمل التى عانتها إنجلترا بضياع الولايات المتحدة من يدها قد علمتها أن تحترس وتسخو فى معاملاتها مع باقى المستعمرات التى تقوم على جهود المستعمرين من الانجليز وغيرهم من الشعوب الأوربية ، فانتهجت فى كندا سياسة ما لبثت أن اتخذتها نموذجاً احتذته فى باقى المستعمرات . ففى سنة ١٨٣٧ عين لورد درهام Durham حاكما عامًّا على كندا ؛ وكان الغرض الأول من تعيينه تهدئة النفوس الثائرة ضد الموظفين الانجليز الذين كانت ترسلهم الحكومة الانجليزية لشغل الوظائف التنفيذية ، وتسوية الخلافات بين أهل المستعمرة من الانجليز والفرنسيين . فنجح درهام فى مهمته ، وقبل أن يبارح البلاد فى سنة ١٨٣٩ وضع تقريراً تاريخيا هاما فى سياسة الاستعمار ضمنه المبادىء الكبرى التى سارت عليها الحكومة الانجليزية فيما بعد . وتتلخص هذه المبادىء فى ضرورة منح المستعمرات حكومات ذاتية ، تكون مسئولة رأسا أمام الهيئة التشريعية فى المستعمرة ، وضم الأقاليم التى تتألف منها المستعمرات فى نظام فدرالى أو اتحادى شبيه بالنظام الذى سلكته الولايات المتحدة . وكان إنشاء السكك الحديدية قد بدأ ينتشر حينذاك ، فحض لورد درهام على تعمير البلاد وربط أطرافها ببناء السكك الحديدية ؛ وبذلك تأتلف الأقاليم وتندمج المصالح ويكثر العمران . وقد أقرت الحكومة الانجليزية هذا النظام ، واتبعته تدريجيًّا فى كندا ثم فى سائر أملاكها . وبعد أن كان النزاع حادًّا بين الانجليز والفرنسيين الذين استعمروا وادى نهر سنت لورنس فى كندا اتفق العنصران وائتلفت مصالحهما ، وأصبحت اللغة الانجليزية واللغة الفرنسية التى يتكلمها ٣٠ فى المائة من سكان كندا مستعملتين رسميًّا فى البلاد . وقد تمتعت كندا بالحكم الذاتى فى سنة ١٨٤٩ وتألفت حكومة الدومنيون باتحاد ولايات كندا سنة ١٨٦٧ .

وحذت أستراليا حذو كندا ، فبدأت ولاياتها تتمتع بالحكم الذاتى منذ ١٨٦٠ ثم توالت الأحداث التى جعلت أهل الولايات يطالبون بتكوين اتحاد

فدرائى ، حتى يمكن مواجهة الخطر الصينى واليابانى ، وكان كلاهما يهدد القارة الجديدة بخطر داهم . فالصينيون كانوا ينزحون بسرعة وبكثرة للعمل فى مناجم الذهب والنحاس التى استكشفت فى استراليا . واليابان كانت تعد نفسها الدولة الحربية البحرية الأولى فى الشرق الأقصى ، وكانت ترنو ببصرها نحو أستراليزيا . لذلك اتفق الاستراليون على تأليف حكومة اتحادية ، وأصدر البرلمان الانجليزى قانونا بذلك فى سنة ١٩٠٢ ، ولم يطلق الاستراليون على اتحادهم اسم « الدومنيون » مثل كندا ، بل أسموا اتحادهم « الكومنولث » Commonwealth وهى أقرب الكلمات إلى معنى الجمهورية . ولم تشترك نيوزيلندة فى هذا الاتحاد ، بل كونت حكومة ذاتية مسئولة منذ ١٨٥٢ وجعلتها صورة قريبة من شكل الحكومة الانجليزية . وأهل نيوزيلندة من أشد الناس تعلقا بالامبراطورية البريطانية وأكثرهم شبها بآبائهم وأجدادهم .

أما فى جنوب إفريقية فقد صادف الاستعمار الانجليزى من جانب المستعمرين الهولنديين الذين عرفوا بالبوير صلابة وشدة مراس ، أدت فى النهاية إلى نشوب حرب مريرة بين العنصرين . وقد آلت مستعمرة الرأس من الهولنديين إلى الانجليز فى أثناء الكفاح بين فرنسا وانجلترا فى عهد الثورة الفرنسية ونابليون بونابرت ، وكانت هولاندة خاضعة إذا ذاك لنابليون باسم جمهورية بتافيا . وقد تأيد امتلاك انجلترا للمستعمرة بمقتضى قرارات مؤتمر فيينا . ولكن الهولنديين الذين هاجر أجدادهم من بلادهم ، كما فعل المستعمرون الأمريكيون ، فراراً من الاضطهاد ، لم يطيقوا أن يخضعوا لحكم الانجليز ، فأخذوا يرحلون بين سنتى ١٨٣٥ و ١٨٣٧ بالمئات من دورهم ومعهم أولادهم ونساؤهم وماشيتهم نحو الشمال ، ضاربين فى آفاق الأرض على غير هدى ، مستهدفين لغارات القبائل الهمجية ، ثابتين لتقلبات الجو ووعورة الطرق ، حتى حط بعضهم الرحال فى إقليم ناتال على ساحل المحيط الهندى ، وتابع بعضهم السير غرباً وشمالا حتى استقروا فى إقليمى نهر أورانج والترنسفال . وكانوا يمنون أنفسهم بعد هذه الهجرة أن يعيشوا أحراراً فى مواطنهم الجديدة بعيدين عن مضايقة الاستعمار الانجليزى . ولكن أنّى لهم ذلك وقد أصبحوا مواطنين خاضعين للقانون الانجليزى ! فما زالت حكومة الرأس تتعقبهم مرحلة بعد أخرى حتى مد الأخطبوط الاستعمارى أطرافه واحتضن هذه الأقاليم جميعاً

وما جاورها . وكان إقليم ناتال أول ما امتدت إليه يد الانجليز لوقوعه على ساحل المحيط الهندى ، وإمكان تهديده لمراكز الانجليز فى مستعمرة الرأس . وعلى أثر ذلك هاجر البوير من ناتال بقضهم وقضيضهم تاركين مواطنهم للمرة الثانية سنة ١٨٤٥ ، قاصدين إلى الشمال والغرب والترنسفال والأورنج . ثم هبّت على البلاد نسمة من أريج الحرية ، كان مصدرها حكومة الأحرار فى إنجلترا ، فسمح لمستعمرات الرأس جميعاً بالحكم النيابى ، وأصبح البوير أحراراً فى جمهوريتهم اللتين أقاموهما فى الأورنج والترنسفال . ولكن سرعان ما استكشفت مناجم الماس والذهب فى الترنسفال والأورنج . ولما كان إنتاج الجمهوريتين ، وخاصة فى الترنسفال ، لهذين المعدنين النفيسين قد فاق كل ما كان منتظراً ، فقد انجذب الانجليز من رجال الأعمال وغيرهم من الأوربيين نحو مصدر هذه السعادة الدافقة ، وبدأت الحكومة الانجليزية منذ ذلك الوقت تضع خططها لضم الجمهوريتين . فكأنما كان كشف الماس والذهب فى تلك الأرجاء نذيراً للبوير بضياع حريتهم واستقلالهم .

وقام النزاع بين الانجليز والبوير بشأن حق التمثيل فى الترنسفال ؛ إذ قصره كروجر Kruger رئيس الترنسفال على البوير دون الآخرين ، وكان على رأس حكومة مستعمرة الكاب أو الرأس سسل رودس Rhodes الذى يرجع إليه فضل توسيع النفوذ الانجليزى فى تلك الأرجاء ، وقد دبر سرًّا مع أحد أصدقائه هجوما سريعا على الترنسفال ؛ لكنه مالبث أن أخفق وكسب البوير أول موقعة من مواقع الحرب التى استعرت بين الانجليز والبوير واستمرت إلى ١٩٠٢ . وقد حالف النصر البوير فى أول الأمر ، لضعف القواد الانجليز من جهة ، ومهارة البوير فى الكر والفر من جهة أخرى ، وقد انتهز وليم الثانى إمبراطور ألمانيا الفرصة لاظهار حنقه على إنجلترا ، فأرسل برقيته الشهيرة يهنئ كروجر على انتصاره . وبدا للناس جميعا أن الانجليز لابد مغلوبون أمام صلابة البوير وحنكة قوادهم . ولكن الانجليز ، كطبيعتهم فى الحروب ، تذرعوا بالصبر وضبط النفس على رغم هزيمتهم ، وأخذوا يعدون العدة لفك الحصار عن المدن التى طوقها البوير ، وعينوا لقيادة الحرب اثنين من أكبر قوادهم ، وهما لورد روبرتس Roberts قائداً عاما . ولورد كتشنر رئيسا لأركان الحرب . وعلى أثر ذلك توالت انتصارات الانجليز وفك الحصار

عن المدن ، وآخرها مافكنج . ومن ثم سقطت بريتوريا عاصمة الترنسفال ، وجوهانسبرج الشهيرة بمناجم الذهب ، وكذلك سقطت مدن جمهورية الأورنج حليفة الترنسفال فى الحرب ، واضطر الرئيس كروجر إلى الفرار إلى أوربا حيث بقى بها إلى أن مات سنة ١٩٠٤ . ولكن البوير كشعب وجيش محارب لم يقهروا ولم يذعنوا ، بل لجأوا إلى حرب العصابات ، وأخذوا يغيرون باستمرار على السكك الحديدية ومراكز الانجليز وقواعدهم ليلة بعد أخرى ، والانجليز حائرون فى أمرهم لا يعرفون لهم مستقراً . وأخيرا لم يقو البوير على متابعة هجماتهم ؛ فقد أخذت أعدادهم تقل . وكان كتشنر الذى تولى القيادة العامة بعد روبرتس قد أمر بجمع أسر البوير نسائهم وأطفالهم فى معسكرات خاصة تحت حراسة الانجليز ؛ فلم ير البوير مندوحة من مفاوضة الانجليز للصلح . وانتهت الحرب فى مارس سنة ١٩٠٢ بمعاهدة فرينجنج Vereeniging وقد أبدى فيها الانجليز كثيرا من الكرم والمروءة ، فدفعوا للبوير تعويضا عما أصاب مزارعهم وحقولهم من التلف ، وقرروا أن يبقى تعليم اللغة الهولندية بالمدارس ويستمر استعمالها بالمحاكم ، وأن يتمتع الذين يستسلمون منهم بحرياتهم وأملاكهم كاملة . وشفعوا هذه المعاهدة بعد خمس سنوات باعطائهم حق الحكم الذاتى . وبعد ذلك بسنتين تألف اتحاد جنوب إفريقية من الولايات الاربع : الرأس وناتال والترنسفال والأورنج ، وصارت اللغة الهولندية المعروفة فى جنوب إفريقية بالأفريكان Africaans رسمية إلى جانب اللغة الانجليزية . ويبلغ عدد البوير الذين يتكلمون هذه اللغة نحو ٦٠ فى المائة من مجموع السكان الاوربيين . ولما آنسوا صعوبة فى تعيين العاصمة اتفقوا على حل طريف ، وهو أن تكون بريتوريا مقر الحكومة التنفيذية ، ومدينة الكاب مقر الهيئة التشريعية ، وبلمفتين عاصمة الاورانج مقر الهيئة القضائية العليا ، واختاروا لرياسة حكومة الاتحاد القائد البويرى بوذا Botha ومنذ ذلك الوقت أخذت الجروح التى خلفتها الاجيال السابقة تندمل . وقد اشترك اتحاد جنوب إفريقية فى الحربين العالميتين إلى جانب إنجلترا ، وكان المارشال سمطس رئيس الحكومة إذ ذاك عضواً فى وزارة الحرب فى أثناء الحرب العالمية الأولى ، ولا يزال من كبار أساطين السياسة فى الامبراطورية البريطانية .

أما تاريخ إرلندة فمأساة طويلة بدأ الفصل الأخير منها سنة ١٨٠٠ حين

قرر البرلمان الانجليزى ضم إرلندة إلى بريطانيا على غير رضا الأهالى . وقد حاولوا إرضاء الشعور الكاثوليكى فى إرلندة خاصة وسائر أنحاء الامبراطورية عامة برفع القيود المدنية التى كانت تحول دون اضطلاع الكاثوليك بالاعمال الحكومية . ولكن ذلك لم يجد شيئاً ، إذ عمد نواب إرلندة فى البرلمان الانجليزى إلى عرقلة الاجراءات البرلمانية ووضع العقبات فى طريق الوزارات التى كانت تتناوب الحكم سواء من المحافظين أو الأحرار إلى أن قام الوزير الانجليزى المعروف غلادستون زعيم الأحرار ينادى بضرورة إعطاء إرلندة نظام الهوم رول Home rule أو الحكم الذاتى . وقد أثارت سياسته ضجة هائلة بين الأحزاب الانجليزية ، فانحاز عدد كبير من الأحرار إلى جانب المحافظين أو الاتحاديين أى الذين يحبذون بقاء الاتحاد بين بريطانيا و إرلندة ، وظل مشروع الحكم الذاتى لارلندة بين الصعود والهبوط والاقرار والرفض إلى سنة ١٩١٤ حين وافق البرلمان الانجليزى على نظام الهوم رول مع استبعاد إقليم ألستر فى شمال إرلندة من هذا النظام و إبقائه على اتحاده مع بريطانيا .

ثم جاءت الحرب العالمية الأولى فوقفت تنفيذ الهوم رول ، واشترك فيها الارلنديون بحماستهم المعهودة حتى إن الأنشودة التى أصبحت علماً للحرب وتناقلتها الألسن وتغنى بها جنود الحلفاء من كل جنس وفى جميع الأصقاع كانت تردد فى مطلعها الحنين إلى تبرارى Tiperary أحد أقاليم إرلندة تلك الجزيرة الزمردية الخضراء . ولكن كل هذا لم يمنع قيام ثورة مخفقة فى سنة ١٩١٦ بمساعدة ألمانيا ، ثم تكوين جماعة الوطنيين المعروفين بالسن فين sinn fèin الذين نظموا صفوفهم تنظيما عسكرياً ، ونادوا باستقلال إرلندة التام.

فما كادت تنتهى الحرب حتى كانت إرلندة فى حالة هياج شديد ضد الانجليز. ولم يلبث أن نشب القتال بين الجانبين واجتمع فى سنة ١٩١٨ ٧٣ عضواً من أعضاء البرلمان الذين انتخبوا من حزب السن فين وأعلنوا جمهورية إرلندة المستقلة ، وكونوا وزارة لا رلندة أخذت تواصل أعمال العنف ضد الانجليز ورجال البوليس بصفة خاصة ، واستمرت هذه الحال إلى سنة ١٩٢١ حين بدأت المفاوضات بين ديفاليرا De Valera رئيس السن فين والحكومة الانجليزية . وعقد الجانبان «المعاهدة الارلندية» . وبمقتضاها صار لدولة إرلندة الحرة ما عدا إقليم الستر فى الشمال نظام الحكم الذاتى أو الدومنيون على مثال نظام الحكم فى

كندا . ولكن الوطنيين الارلنديين لم يقنعوا ولم يتقيدوا بهذا النظام ، وسرعان ماتخلصوا من القيود التى فرضت عليهم ، فأبطلوا تعيين الحاكم العام الذى كان يمثل التاج البريطانى ،وحلف يمين الطاعة للملك ، وأصدروا دستوراً جديداً فى سنة ١٩٣٧ أعلنوا فيه الجمهورية ، وجعلوا اللغة الارلندية اللغة الرسمية للجمهورية الجديدة التى أطلقوا عليها اسم « إيره » Eire وأجازوا استعمال اللغة الانجليزية ولكنهم لم يذكروا شيئا فى دستورهم الجديد خاصا بالملك أو التاج البريطانى . ولما أعلنت الحرب العالمية الثانية التزمت إرلندة الحيدة إلى النهاية ، ولا يزال الوطنيون ينقمون على انجلترا فصل شمالى إرلندة عن بلادهم . ومادام الخلاف بين الشعبين يقوم على اعتبارات دينية فان الأمل فى الاتفاق بين الشعبين يبدو غير قريب .

وعلى ذلك فالمستعمرات البريطانية التى تتمتع الآن بنظام الحكم الذاتى هى كندا ،وأستراليا ،ونيوزلندة، وجنوب إفريقية تضاف إليها إرلندة . وكان المحافظون كعهدهم دائماً كلما هممت الحكومة الانجليزية باقرار الحكم الذاتى لاحدى هذه المستعمرات جاهروا بأن هذه القوانين لا بد أن تؤدى إلى انحلال الامبراطورية البريطانية وتصفيتها،وحذروا الحكومات من المضى فيها . ومع ذلك فقد احتفظت انجلترا بتعيين حكام عامين يمثلون التاج فى هذه الأملاك ، كما احتفظت فى أول الأمر بقواعدها البحرية وحامياتها ،وبتوجيه السياسة الخارجية للامبراطورية ،وتقرير الحرب والسلم وحق الاحتكام إليها فى المسائل الثانوية والدستورية التى يختلف فيها الرأى . ولكن هذه التحفظات أخذت تتساقط واحدة بعد أخرى؛ إذ جاءت الحرب الكبرى ومكنت المستعمرات من مزاولة الأعمال الدولية فى الحرب والسياسة ،مما قوى فى نفوس أهل المستعمرات شعورهم بالمسئولية الذاتية ، وانبنى على ذلك أنهم اشتركوا فى مؤتمر الصلح سنة ١٩١٩ لابصفتهم تابعين لبريطانيا ولكن باسم بلادهم ، واختير أربعة منهم ضمن الدول المؤسسة لعصبة الأمم ، كما عهد إلى بعضهم ، كاستراليا وجنوب إفريقية ، بالانتداب على بعض الأقاليم والجزر التى كانت تابعة لألمانيا . وكانت الحكومة الانجليزية تنظم بين آونة وأخرى اجتماعات تضم فيها ممثلى الامبراطورية البريطانية للاتفاق على المسائل المشتركة بينها . وكان آخر هذه المؤتمرات فى سنة ١٩٣١ وفيه صدر قانون وستمنستر Westminster الذى وضع القواعد العامة التى تنظم الامبراطورية . وقد

نص فيها على أن التاج هو الرمز الذى يربط بين أعضاء مجموعة الأمم الحرة البريطانية ، وأن أى تغيير فى وراثة التاج يستلزم أخذ رأى برلمانات الدومنيون على حد المساواة مع البرلمان الانجليزى . ونص فيها أيضاً على أن القوانين التى يصدرها البرلمان الانجليزى لا تسرى على الدومنيون إلا إذا أرادت ذلك برضاها. وبذلك زال أثر القانون القديم الذى كان يجيز للبرلمان الانجليزى حق إلغاء أو تعديل القوانين التى تصدرها المستعمرات . وباصدار هذا القانون أصبحت المستعمرات فى حقيقة الأمر دولا ذات سيادة داخل مجموعة الأمم الحرة البريطانية، وصارت حكوماتها مساوية فى المركز لحكومة بريطانيا نفسها ، وصار من حقها أن تتعاقد مع الدول وأن تتبادل معها التمثيل السياسى ، ولها أن تقرر دخول الحرب التى تشتبك فيها إنجلترا أو ألا تدخلها . ومعنى ذلك أن الملك فى بريطانيا قد يكون فى حالة حرب مع ألمانيا على حين يكون هو نفسه فى حالة سلم معها بصفته ملكا على جنوب إفريقية . وقد جنح التاج أخيراً إلى تعيين الحكام العامين من رجال المستعمرات نفسها .

وقد يبدو لأول وهلة من هذه القوانين أو التصرفات أن الأملاك البريطانية المستقلة لم تعد تابعة لبريطانيا إلا بالاسم ، على أن الحقيقة التى دلت عليها الحرب العالمية الثانية هى أن توافق الأمزجة والمشاعر بين الشعوب التى تسكن هذه المتلكات وتقديسهم جميعاً للحريات وأساليب الحكم الديموقراطى الصحيح بالاضافة إلى روابط الدم واللغة والدين التى تربط بين معظم هذه الشعوب — كل ذلك قد . ل من التاج الذى يربط الجميع خيوطاً دقيقة رفيعة هى إن دققت النظر أمضى من الصلب وأرق من الهواء .

محمد رفعت